المعرف الرقمي DOI
https://doi.org/10.59151/.v7i1.251

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 24-12-2022
تاريخ القبول: 20-2-2023

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في علوم الوحي والدراسات الإنسانية

فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات من خلال الوحيين:
دراسة تحليلية في التصور والمنهج

المصطفى الشويخي[1]
mostafachouikhi13@gmail.com

ملخص:

يهدف هذا البحث الموسوم بـ"**فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات من خلال الوحيين: دراسة تحليلية في التصور والمنهج**"، إلى بحْثَ القوانين والطرق العلمية لتقدم أي مجتمع وسبرها، والمبادئ القِيمِيّة والمرتكزات المنهجية لثباته، كما يُعنَى بآليات تفكيك الأزمات التي تُصيب المجتمعات، وتفسيرها وتعليلها، وإدراك سننها وقوانينها؛ للخروج من هذه الأزمات. كما يحاول الإجابة عن إشكالية المجتمع المثال الذي يمثل حالة السواء لأي تقدم منشود، ومعالم هذا التقدم والفلسفة التي يتكئ عليها. معتمدًا في ذلك منهجًا يتناسب وطبيعة البحث، كالوصف والتحليل والاستنباط. وقد خلص إلى جملة من النتائج منها: أن المجتمع القرآني، هو المجتمع المثال، وكل مجتمع حاول خرق سنة من السنن الإلهية، فمآله إلى الزوال. وأن تغير الدول والمجتمعات، سنة وقانون إلهي في الكون.

الكلمات المفتاحية:

القرآن، السنة، فلسفة السنن، المجتمعات، التقدم، القانون.

(1) باحث في الدراسات الإسلامية، سلك الدكتوراه، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس. (المغرب).

للاقتباس: الشويخي، المصطفى، فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات من خلال الوحيين: دراسة تحليلية في التصور والمنهج، مجلة نماء، مركز نماء، مصر، مج7، ع1، 2023، 72-91.

© نشر هذا البحث بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) المفتوح، الذي يسمح لأي شخص تنزيل البحث وقراءته والتصرف به مجانًا، مع ضرورة نسبته إلى صاحبه بطريقة مناسبة، مع بيان إذا ما قد أُجرى عليه أي تعديلات، ولا يمكن استخدام هذا البحث لأغراض تجارية.

OPEN ACCESS
Received: 24-12-2022
Accepted: 20-2-2023

دورية نماء
فصلية محكمة متخصصة في
علوم الوحي والدراسات الإنسانية

The Philosophy of Divine Norms and tRevelations: An Analytical Study of Conceptualization and Methodology

Al Mustafa Al-Shuwaikhi[(2)]
mostafachouikhi13@gmail.com

Abstract

This study investigated and probed the laws and scientific methods for the progress of any society, the value principles and the methodological foundations for its stability. It also focused on the mechanisms of dismantling, interpreting and justifying crises that afflict societies, as well as identifying norms and laws of crises in order to overcome them. The study also attempted to address the issue of ideal society, which represents a state of normality for any desired progress, and the indicators of this progress as well as the philosophy that underpins it. The study adopted the descriptive, analytical, and deductive method, which is appropriate to the study objectives. The research concluded that the Qur'anic society is the ideal society, and any society, which tries to violate one of the Divine norms is destined to vanish, and that the change of states and societies is a Divine norm and law in this universe.

Keywords:

Quran, Sunnah, philosophy of norms, societies, progress, law.

(2) Researcher in Islamic Studies, PhD, Faculty of Letters and Human Sciences, Sidi Mohamed Ben Abdallah University, Fez. (Morocco)

Cite this article as: Al-Shuwaikhi, Al Mustafa, The Philosophy of Divine Norms and the Progress of Societies through the Two Revelations: An Analytical Study of Conceptualization and Methodology, Journal of Namaa, Nama Center, Egypt, V7 issue1, ,2023, 72:91.

© This research is published under an open license (CC BY-NC 4.0), which allows anyone to download, read and use the research for free, provided it is properly acknowledged, indicating if any modification has been made to it. This research shall not be used for commercial purposes.

مقدمة:

لما تقاربت المجتمعات جغرافيًّا وتعارفت ثقافيًّا بفضل ما توصلت إليه من التّقنيات الحديثة، عاد السؤال الذي طالما تطرق له مفكرو الإسلام، للساحة الفكرية، وهو: **لماذا تقدم الغرب وتأخر المسلمون؟**، أين مكمن الإشكال، هل في المخاطب المتلقي، أم في خطاب الوحي؟!

غير أن الإشكال -الآن- لم يعد قاصرًا على ذاك السؤال؛ بل تجاوز ذلك إلى النظر في المجتمعات التي ترُشَّح لتكون نموذجًا يقتدى بها، التي لم تعد تُعلَم معالمُها لكثرة عثراتها، وانحطاطها قيميًّا. من أجل تصور فلسفة نهوض المجتمعات وسقوطها، والوعي بالمنهج السديد في فهم النصوص وتنزيل التصوّرات. وهذا مما اقتضى إعادة طرح السؤال بصيغة أخرى، ليصير السؤال: **ما هي فلسفة السنن الإلهية في تقدم المجتمعات؟، وما هو المجتمع النموذج الذي يدعو إليه الوحي؟**

ولعل السؤال بهذه الصيغة مُشعرٌ بأن المتلقي أدرك أن الإشكال فيه، وليس في الخطاب؛ لذا يُفترض منه الخضوع والإصغاء لِمَا سَيُمْلَى عليه من سنن الله في تقدم المجتمعات، ونهوضها وسقوطها. وهذا هو مساق فكرة هذه الدراسة التي وسمتها بـ: «**فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات من خلال الوحيين: دراسة تحليلية في التصور والمنهج**».

مشكلة البحث:

يسعى البحث إلى معالجة الإشكال الآتي:

- سؤال التصور، وهو: ما هي المعالم والأسس المنهجية التي تتكئ عليها فلسفة سنن تقدم المجتمعات؟
- سؤال النموذج، وهو: ما هو المجتمع المقترح ليكون نموذجًا، ويمثل حالة السواء لأي تقدم؟

الدراسات السابقة:

عندما يقوم الباحث بمسح ببليوغرافي حول ما كتب عن فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات، في الدراسات السابقة، يجد أن الموضوع لم يعطَ حقه من البحث، عدا دراسات عامة اعتنت بالسنن الإلهية تنظيرًا وترغيبًا؛ بل حتى موضوع السنن الإلهية **باعتباره علمًا من العلوم الإسلامية** لا زال بين مدٍّ وجزر، بين رافضٍ ومؤيدٍ، وهذا ما جعلني أصوّب القلم نحوه؛ بغية البحث من هذه الزاوية المهملة، لحل الإشكال السابق.

بيد أني في هذا الصدد لا بُدَّ أن أعرِّج على بعض الدراسات التي تناولت الموضوع ولو بشكل عام، أو في مساقات مختلفة، من ذلك «**السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**» **لعبد الكريم زيدان**، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1413هـ- 1993م، وهو من الكتب الأولى الدقيقة الشاملة، في بيان سنة الله تعالى في خلقه، وقد اشتمل على مقدمةٍ وسبعة عشر فصلًا؛ حيث عالج فيه السنن الإلهية بشكل عام، ومن القضايا التي تناولها، سنّة الله في الأسباب والمسببات، وسنّة الله في اتباع هداه والإعراض عنه، وسنّة الله في التدافع بين الحق والباطل، وسنّة الله في الفتنة والابتلاء، وسنّة الله في الظلم والظالمين، وقانون الاختلاف، وقانون التماثل والأضداد، وسنّة الله في الترف والمترفين، و سنّة الله في الطغيان والطغاة، وسنّة الله في بطرِ النعمة وتغيرها، وسنّة الله في الذنوب والسيئات، وسنّة الله في التقوى والإيمان والعمل الصالح، وقانون الاستدراج، وسنّة الله في المكر والماكرين، وسنّة الله في طلب الدّنيا والآخرة، وسنّة الله في الرزق، وسنّة الله في الفظاظة والغلظة والرفق.. فهذا مجمل ما تناوله.

وكتاب «**سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم** -أصله رسالة الدكتوراه- لحسن بن صالح الحميد، إشراف الدكتور ناصر العمر، عام1414هـ، قامت بنية هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد، وأربعة أبواب وخاتمة؛ عالج المؤلف فيها، السنن الإلهية من خلال الآيات القرآنية؛ حيث تناول خصائص سنن الله في الأمم، ومنهج القرآن في عرضها، ثم تحدث عن مجالات سنن الله في الأمم، من ذلك: مجال الحماية والوقاية، ومجال الابتلاء والتمحيص، ومجال التحذير والتهديد، ومجال الجزاء، ومجال الكشف والإبانة، ثم عرج عن آثار رعاية السنن وعواقب الإعراض عنها، ثم ختم بالحديث عن فقه السنن.

وكتاب «**مفهوم السنن الرّبانية**»، لرمضان خميس زكي. تقديم: محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولية، وهو في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، تناول مفهوم السنن الربانية في اللغة والقرآن والحديث النبوي الشريف، كذا خصائص السنن الربانية، ثم تحدث عن العلاقة بين السنن الكونية والسنن الربانية، ليختم بمنهجية التعامل مع السنن الربانية.

وكتاب «**علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي**» لرشيد كهوس، وهو من منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي /الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى: 1436هـ/2015م. قد اشتمل على تسعة مباحث؛ تناول فيه المؤلف تعريف السنن الإلهية وتأصيلها، ثم بيَّن أقسامها وخصائصها وصفاتها، كذا مقاصدها وآثارها، والقواعد الكلية التي ترتكز عليها، ثم بين الدواعي التي تدعو إلى الاهتمام بالسنن الإلهية، ثم تحدثَ عن الوعي العملي بالسنن الإلهية في العهد

النبوي، والوعي النظري عند القدامى من علماء المسلمين، ثم انتقل إلى تبيين منهج القرآن والسنة وتوضيحه في عرض السنن الإلهية، وختم بعرض نماذج من السنن الإلهية، من ذلك: سنة الله في تغيير النعم، وسنة الله في الأسباب والمسببات.

كما هو ملاحظ أنَّ البحثَ محاولة في الإجابة عن إشكالية محددة، متعلقة بالجانب الإجرائي لتفعيل ما نظّر له أصحاب الدراسات التي ذكرتُ وغيرهم، ممن هو متخصص في هذا المجال الدقيق.

منهج الدراسة:

طبيعة هذا البحث اقتضت أن أعتمد المنهج الوصفي؛ لوصف أسباب قيام المجتمعات وأفولها، والمنهج التحليلي؛ لاستنباط واستخلاص القوانين والنواميس المتحكمة في المجتمعات؛ تخلُّفًا وتقدُّمًا.

خطة البحث:

اشتمل البحث بعد المقدمة على **مبحثين**. تناول في المبحث الأول مقومات المجتمع المتقدم في القرآن والسنة، من خلال أربع مقومات ودالتين سياقيتين (الإيمانية والإنسانية)، وتناول في المبحث الثاني جدلية الثبات والتغيّر، تحت عنوان: ثبات السنن وتغير المجتمعات. ثم الخاتمة والتي اشتملت على أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول: مقومات المجتمع المتقدم في القرآن والسنة

إذا كانت المجتمعات المحسوبة على التقدم كثيرة، وإخفاقاتها وتخلفها في جوانب عديدة، لا يسمح لها بأن تجعل هي الصورة المثال؛ أو النموذج الذي يمكن محاكاته، فما هي صورة المجتمع المتقدم؟ أو بعبارة أخرى ما طبيعة المجتمع المثال؟

إن المجتمع القرآني الذي مثّله النبي ﷺ في المدينة، هو المجتمع المثال، وحالة السواء للمجتمع الإنساني عامة؛ لأنه قائم على فلسفة الوحي؛ إذ هو الواضع لمعالمه ومقوماته، يقول سيد قطب في بيان واضع سمات ومقومات المجتمع الإسلامي: «الشريعة هي التي صنعت المجتمع الإسلامي، هي التي حددت له سماته ومقوماته، وهي التي وجهته وطورته، ولم تكن الشريعة مجرد استجابة للحاجات المحلية الموقوتة كما هو الشأن في التشريعات الأرضية، وإنما منهاجًا إليها لتطوير البشرية كلها وصياغتها

صياغة معينة، ودفعها إلى أوضاع يتم بها تحقيق المجتمع الإسلامي المنشود...»[3]. وقبل تحديد مقومات تقدم المجتمع وأسسه، أُبيّن –بعجالة- المراد بمصطلح: (مقومات المجتمع المتقدم).

أولًا: المقومات: فـ«مقوم» مفرد، والجمع مقومون ومقومات؛ وهو مشتق من (قَوَمَ)، فـ«القاف والواو والميم أصلان صحيحان، يدل أحدهما على جماعة ناس، وربما استعير في غيرهم، والآخر على انتصاب أو عزم»[4]، والمعنى الثاني لقوم: «قولهم: قام قيامًا، والقومة المرة الواحدة، إذا انتصب... ومن الباب: هذا قِوام الدين والحق؛ أي: به يقوم»[5].

يستخلص من نص ابن فارس أن جذر «قوم» اشتمل على مجمل عناصر المجتمع الذي نَصْبُو إليه، وهي: الإنسان، والإرادة، والزمان والمكان، والعقيدة.

فالمقومات هي التي يرتكز عليها المجتمع ويقوم بها؛ لكونها من العناصر الأساسية؛ التي «تُسهِم في قيامه ووجوده، وفاعليته-من ذاك- مقومات الحياة/الجمال-و- المقومات العمرانية»[6].

ثانيًا: مقومات المجتمع المتقدم: ويراد بها تلك الركائز والأسس؛ التي يقوم عليها المجتمع المتقدم؛ المأتحة من الخبرات العالمية، والمتكئة على السنن الإلهية، والمسترشدة بالقرآن والسنة النبوية، ومن أهم تلك المقومات وأوثقها:

1- المقوم العقدي:

المقوم الأول؛ هو إرساء العقيدة الإسلامية في قلوب الناس؛ ولفظ العقيدة مشتق من فعل [عقد]، ومن مادة أصلية، «العين والقاف والدال أصل واحد يدل على شد وشدة وثوق، وإليه ترجع فروع الباب كلها، من ذلك عقد البناء، والجمع أعقاد وعقود.. وعاقدته مثل عاهدته، وهو العقد والجمع عقود. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾(المائدة: 2-1)»[7]. وهي ما يؤمن به الإنسان ويعقد عليه قلبه من أمور الدين، فرابطة العقيدة هي الأساس الأول في العلاقة بين الناس، فإن تعارضت آصرة أخرى قدمت العقيدة.

---

(3) سيد قطب، نحو مجتمع إسلامي، دار الشروق، ط10، (1413هـ- 1993م)، ص64.

(4) أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، مقاييس اللغة، مادة [قوم]، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (1399هـ - 1979م)، 5/43.

(5) المصدر نفسه.

(6) أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب – القاهرة، ط1: (1429هـ 2008-م)، 3/ 1879.

(7) مقاييس اللغة، مادة [عقد]، 4/86.

يقول تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة: 24).

عند التمعن في هذه الآية الكريمة، يتبين كيف أن الأصل العقدي تترجح كفته على سائر العلاقات؛ التي ترتبط بالفرد المسلم؛ فبهذه الآية قدر رسم الله لنا معالم مركزية الإقلاع الحضاري؛ هما خطان: إذا نُظِر إليهما من جهة الأفضلية فهما متوازيان لا يلتقيان؛ أي: محبة الله ورسوله، والجهاد في سبيل عقيدة الإسلام فوق كل شيء، وإذا نُظِر إليهما من جهة التسخير، فهما متكاملان؛ أي: الأهل والعشائر والأموال والتجارة، هي مسخرة لخدمة ومصلحة العقيدة والذبّ عنها.

إن ترسيخ العقيدة في النفوس واستتبابها في المجتمع، هي الأسّ الذي يقوم عليه المجتمع، لذا كان من أولى أولويات الرسل عليهم السلام في دعواهم، هي تثبيت هذه العقيدة في نفوس أقوامهم؛ فرسالتهم واحدة ونداؤهم واحد: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾(الأعراف: 65)؛ ولذا مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عامًا، من أجل غرس عقيدة التوحيد، وتخليص النفوس وتخليتها؛ ممّا ران عليها من الشركيات، وممّا ترسب في القلوب من رذائل الأخلاق، وفساد الطباع، وتحليتها بإشراقات الإيمان وهداية الإسلام، فبالعقيدة يملك الإنسان الحرية وهي الشّرط الأساس في البناء وتحقيق التقدم- كما سيأتي-.

لمّا ترسخت العقيدة في قلوب الناس، لم تعد تُلمح وتشاهد تلك الجماعات الكثيرة، والطوائف العديدة المتناحرة والمتقاتلة؛ بل صار يُشاهد و«يرى جماعة واحدة تملأ عقيدتها ما كان بينها من فراغ، وتتيح لها غاياتها التي ملأت عليها نفسها أن تنسكب وفق هذا النظام الجديد، في مجتمع جديد وصفوف جديدة»[8]؛ أي: بفضلها تم ردم جدار العصبية، والهرمية الفرعونية، وتحرير الإنسان من عبودية الأوثان والإنسان، إلى عبادة خالق الخلق الواحد الأحد.

فالتوحيد يرفع الإنسان إلى آفاق الحرية، ويجعله لا يخضع إلا لله، ويعرفه بنفسه ومهمته ووظيفته في هذا الكون. فأول ما طلبه النبي ﷺمن الناس لمّا بعثه الله تعالى في هذه الأمة، هو أن يقول الناس: لا إله إلا الله، ويشهدون أنه رسول الله؛ لأن «أكبر أصول عقيدة الإسلام وحدانية الله تعالى، وأن جميع

(8) فيصل شكري، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار الكتاب العربي بمصر، (1371هـ- 1952م)، ص32.

المخلوقات من أشرفها إلى أدناها عبيده، وإثبات بعثة الرسل وأنهم عبيده المكرمون...»[9]، ففي الحديث النبوي، قصر الفلاح على قول: لا إله إلا الله، فالإقرار بهذه الحقيه شرط النجاة والفلاح، قال عليه السلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا»[10].

1- مقوم الأخوة:

يأتي هذا المقوم كنتيجة للمقوم العقدي، وهو يقوم على دالتين سياقيتين تنتظم فيهما نسقيته؛ الإيمانية والإنسانية، فَلِكَي تتحقق الوحدة والتماسك للمجتمع، وتُعلم تركيبته السننية، وتنقضُ حواجزه الطبقية.. لا بُدَّ من تلك الدوال. والأخوة تعني «أن يعيش الناس في المجتمع متحابين، مترابطين، متناصرين، يجمعهم شعور أبناء الأسرة الواحدة؛ التي يحب بعضها بعضًا، ويشد بعضها أزر بعض، يحس كل منها أن قوة أخيه قوة له، وأن ضعفه ضعف له، وأنه قليل بنفسه كثير بإخوانه»[11].

الدالة السياقية الأولى (الإيمان):

إن هذه الدالة هي من أوثق الصلات، ومن أنجع اللقاحات للأدواء الاجتماعية، هي السّياق المُحقق للائتلاف والموحد للرؤية والأهداف، فبنية المجتمع إذا تخللتها العقيدة الواحدة، كانت بينة قادرة على الصمود أمام أي ضربات محتملة، وفي هذا السياق يقول المفكر بديع الزمان النورسي: «إن الإيمان بعقيدة واحدة، يستدعي حتمًا توحيد قلوب المؤمنين بها على قلب واحد. ووحدةُ العقيدة هذه، تقتضي وحدة المجتمع. فأنت تستشعر بنوع من الرابطة مع من يعيش معك في طابور واحد، وبعلاقة صداقة معه، إن كنت تعمل معه تحت إمرة قائد واحد؛ بل تشعر بعلاقة أخوة معه لوجودكما في مدينة واحدة...»[12].

فالإمام النورسي في هذا النص قد سجّل حكمًا نقديًا تعجبيًا، مفاده أن المجتمع الذي يؤمن بعقيدة واحدة لا ينبغي أن يكون مشتت الأطراف، متشظيًا متناحرًا، متصارعًا؛ لأن العقيدة مانعة! قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾(الحشر: 9).

---

(9) محمد الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (الشركة التونسية للتوزيع، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر)، ط2، ص50.

(10) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، (مؤسسة الرسالة، ط1:(1421 هـ - 2001 م) رقم الحديث: 19004، 31/342

(11) يوسف القرضاوي، ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده، مؤسسة الرسالة، ص831.

(12) بديع الزمان سعيد النورسي، المكتوبات، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار: شركة سوزلر للنشر، ط6، ص326.

وفي الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»[13].

الدالة السياقية الثانية (الإنسانية):

وهي سياق عام موجبٌ لائتلاف الناس ومُسالمة بعضهم بعضًا؛ لما تحمله من الصفات والخصائص؛ التي تصدق على البشر جميعًا، فأي عنف واقع، أو متوقع، يحارب بهذا المبدأ. ومن هنا، فإن خطابات الكراهية والعمليات الإجرامية المهددة لأمن المجتمع وتماسكه، تُحارب، ويُعاقب أصحابها أيًّا كانت دياناتهم ومرجعياتهم؛ لأن هذا المبدأ يسع الآدميين بألوانهم، وأعراقهم، وجنسياتهم، ومذاهبهم، وأديانهم؛ إذ يُقر بالنوع الإنساني، وهي خاصية يتفق عليها الجميع، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (المؤمنون: 12)، ويقول الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- في بيان معنى الإنسان في هذه الآية: «والمراد بالإنسان يجوز أن يكون النوع الإنساني»[14].

2- مقوم المساواة والتضامن:

الإسلام لمّا جاء لم يفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتأصيلا لهذا المبدإ يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات: 13).

فأول أمر يطالعنا في خطاب هذه الآية، لفظ المنادى: «الناس»، على المستوى المنهجي؛ فهو يدل على أن الخبر الذي يعقبه يستهدف كل الناس، وعلى المستوى العلمي؛ فهو يدل على أن كل البشر يصدق عليهم لفظ «الناس»؛ وهذه عَتَبَةٌ مهمة، يمكن الاتفاق عليها حتى من قبل من يظن أن عدم المساواة أمر حتمي في الوجود!

الأمر الثاني: وحدة الأصل والخلق؛ فعندما يعي الإنسان أنه مخلوق من قبل الله ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم﴾، وأنه من أب وهو آدم، وأم وهي حواء، وأن وجوده في شعب من الشعوب أو في قبيلة من القبائل، أو

(13) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث-بيروت، كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله رقم الحديث: 2564.

(14) محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، 18/21.

في بلد من البلدان، متباعد جغرافيا ولونًا وثقافة...هو بجعل الله، وأنه مطلوب منه الاقتراب والتطلع والتعرف على أخيه الإنسان، والنظر في حاجاته، وأن واضع معيار الأفضلية هو الله، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾.

فعندما يعي الإنسان هذين الأمرين، يدرك أن سنته تعالى اقتضت أن يكون الناس سواسية، وأيّ مجتمع حاول خرق هذه السنة، فهو متخلف، وفي طريقه إلى الأفول والزوال؛ لأن هذا هو قانون الله.

هذا الانتظام ليس فيه تفريقٌ بين الإنسان مادام إنسانًا، ولتوضيح هذه القاعدة أكثر، سأقف قليلًا مع هذه الآية؛ التي ذُكرت قبل؛ لتصور خارطة الوجود، واستنباط ما اشتملت عليه من السنن، فهي كاشفة عن مجموعة من القوانين الإلهية في الوجود الإنساني وهي كالآتي:

القانون الأول: الماثل في لفظ «الناس»، وهو يدل على أن البشر مشتركون في هذه الصفة؛ تمييزًا عن الأجناس والمخلوقات الأخرى؛ التي أوجدها الله بقدرته.

القانون الثاني: تدل عليه جملة «إنا خلقناكم»، وهي تؤشر على أن الموجد الفعلي والحقيقي (لكم) هو الله، وليس أبويكم البيولوجيين.

القانون الثالث: في شبه الجملة ﴿مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، وهي تدل على أن الوجود قائم على مبدإ السببية، فحرف (مِنْ) يدل على سنة الله الجارية في الخلق، لا وجود لولد بدون أب أو أم؛ إلا في السنن الخارقة، كما في وجود عيسى عليه السلام بدون أب وغير ذلك..

القانون الرابع: الماثل في جملة (وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا)، وهو يدل على أن مسألة الاختلاف سنة في الخلق، وهو بقصدية التكامل والتعاون، لا التعالي والتقاتل؛ لأنه لا يمكن أن يستقل أحد عن الآخر، بدعوى الأفضلية، أو بالاستغناء، فقوام جسمه لا بُدَّ له من الآخر، وتلبية حاجاته المادية والغريزية والروحية، لا بُدَّ له من الآخر، وهكذا، فهو اجتماعي بالطبع.

القانون الخامس: المركوز في جملة ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾، وهي تدل على أن ميزان الأفضلية هو التقوى، وهو من عند الله، فلا يجوز للإنسان أن يضع معيارًا يفاضل فيه بين الناس، كأن يقدم فلانًا ويحرم فلانًا، ويعطي شخصًا ويحرم آخر، لنسب أو حسب، فالمكانة والدور- حسب هذا القانون- تعطى بالكفاءة والخبرة والمهارة... إن كنا نطمح إلى التقدم، أما في الآخرة فميزانها من وضع وجعل الله.

وبدون استحضار هذه القوانين، يؤدي بالإنسان إلى الهلاك لعدم قدرته على تسخير وتوظيف تلك السنن لمنفعة الإنسان؛ لأن «الإنسان غير المتكافل مع نفسه (غير السوي)، يصعب عليه أن ينظر

للآخرين نظرة سوية، ويمتلك القدرة على التكامل معهم؛ بل لقد تجاوز الأمر في التصور الإسلامي إلى مرحلة أرقى من ذلك؛ حيث جعل الإسلام نجاة الفرد مرهونة إلى حد بعيد بنتيجة الآخرين، وربط كمال الإيمان بحب الآخرين...»[15].

3- المقوم الأمني:

لفهم مبدأ الأمن وقيمته، يستلزم وضعه في سياق مقاصد الشريعة؛ حتى تُعلم صورته وتتمايز، وتدرك حيثياته، وتجلى درجاته. ومقاصد الشرع ثلاثة: ضرورية، حاجية، تحسينية، وتنحصر الضروريات في خمسة، يقول الشاطبي: «ومجموع الضروريات خمسة وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقالوا: إنها مراعاة في كل ملة»[16].

والضروريات؛ هي التي تتوقف الحياة عليها، ويستحيل قوامها دونها، «بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدين والدنيا على استقامة؛ بل على تهارج وفساد، وفي الآخرة فوات النجاة والنعيم، والرجوع بالخسران المبين»[17].

والحاصل أن طبيعة الإنسان تقوم على جسد وروح، واقتضت سنته تعالى أن جعل لكل من الجسد والروح غذاء خاصًا؛ فقوام الروح لا بُدَّ له من الدين، وما فيه من إشراقات إيمانية، تجعل الروح تحيا وتسمو. وقوام الجسم بالأكل والشرب، والابتعاد عما يؤذيه من الأمور الضارة، ولبقاء النوع الإنساني لا بُدَّ من التناسل القائم على الزواج الشرعي، ولتحصيل ذاك لا بُدَّ من المال؛ إذ هو عصب الحياة. فكل ضروري من هذه الضروريات لا يقوم ولا تتحصل غاياته، إلا في ظل الأمن؛ بل هو في ذاته يطلب التأمين؛ حتى يستقيم ما بعده، فإذا لم يؤمن ضروري واحدٌ من الخمسة، وقع التصدُّع في المنظومة كلها؛ إذ المنظومة هندسة قائمة على أسّ تستند إليه وهو الأمن.

إذن؛ مقوم الأمن أساس الضروريات، فهو البيئة السّليمة لقيام الضروري، وغاياته. ومسألة الأمن، اهتم بها العلماء كثيرًا، قديما وحديثًا، من ذلك؛ أجد أبا الحسن الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين»، أثناء حديثه عمّا تصلح به الدنيا وينتظم به عمرانها، يتحدث عن قاعدة مهمة في بيان أن الأمن هو مؤشر من مؤشرات تقدم المجتمعات وتخلفها.

---

(15) عمر عبيد حسنة، الشاكلة الثقافية؛ مساهمة في إعادة البناء، المكتب الإسلامي، ط1، (1432هـ- 2011م)، ضمن الأعمال الكاملة؛ 4/101.

(16) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، 2/20.

(17) الموافقات، المصدر السابق، ص221.

يقول -رحمه الله-: «وأما القاعدة الرابعة: فهي أمن عام تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف. فليس لخائف راحة، ولا لحاذر طمأنينة. وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش؛ لأن الخوف يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدلٍ»[18].

مفاد هذه القاعدة؛ أن الأمن العام مشجّعٌ على الفاعلية الاجتماعية، ورافعٌ للهمم الإنسانية، ومذيب للخوف والفزع، وناشر لثقافة العلم والسلم، كما يشترط توفر العدل؛ لأن الأمن لا يتحقق بدون عدل.

وفي القرآن آيات عدة عن الأمن وأهميته، من تلكم الآيات قوله تعالى:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(البقرة:125).
- ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:97).
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(الأنعام:82).
- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (يوسف:99).
- ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ (النمل:89).
- ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(فصلت:40).

ومن السنة قوله ﷺ: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»[19].

إذن؛ فالأمن من آكد الواجبات، وهو مطلب شرعي لتقدم المجتمع وريادته.

المبحث الثاني: ثبات السنن وتغير المجتمعات

بناء على ما تقدم في المبحث السابق، من المقومات الحافظة للبنية الاجتماعية، والناهضة بها-تلك المقومات كانت خريطة واضحة عن الأسس الفلسفية والمنهجية؛ التي ينبغي أن ينطلق منها أيّ مجتمع

(18) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي، أدب الدنيا والدين، دار مكتبة الحياة، 1986م، ص142.

(19) سنن الترمذي(الجامع الكبير)؛ تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، 1998م، باب ما جاء في أَنّ الْمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم الحديث: 2627، 4/313.

يروم التقدم، والصعود لمراقي التمدن الحضاري- أشرع في هذا المبحث في بيان طبيعة السنن المتحكمة في المجتمعات، وكيف يكون ثبات السنن شرطَ صناعة المجتمع النموذج؟!

إن المتأمل في الخلق يلحظ أن الله سبحانه خلق الخلق وفق نظام محكم، لا يحيد قيد أنملة عن المسار الذي رسمه له، وأخضعه لقانون «السببية»؛ حتى تكون الأسباب مفضية لمسبباتها في أي وقت، وفي أي مكان.. واتسام سنن الله بالثبات «هو ما يضفي على هذا العلم موضوعيته، ويجعله ميدانًا للبحث والدراسة»[20]، وثبات السنن الإلهية كما يقول الرازي - ﷺ- يعني: «أن ما أجرى الله تعالى به العادة لم يتهيأ لأحد أن يقلب تلك العادة»[21].

والمجتمعات تخضع لتلك السنن وتسير وفقها؛ لكن طبيعتها قائمة على التغيُّر والتحوُّل، يقول ابن خلدون: «اعلم: أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقًا من أحوال ذلك الطور، لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال؛ الذي هو فيه، وحالات الدولة لا تعدو في الغالب خمسة أطوار»[22].

من خلال هذا النص، يتبين أن تغير الدول والمجتمعات سنة وقانون إلهي في الكون، فابن خلدون وهو من أوائل الدارسين الاجتماعيين؛ الذين حاولوا دراسة هذه السنن وفهمها، من خلال مقدمته المشهورة؛ حيث عرض فيها قوانين وسنن تقدم المجتمعات وتخلفها، وفق منهج تجريبي[23]!

فالقانون المستخلص من هذا النص هو: أن أي مجتمع، قائم على التغير والتحول، وهذا بالاستقراء وبالنص، يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ (الرعد:11). معنى هذا أن التغير حاصل، ومقرر، وحتمي، بغض النظر هل التغير بإرادة الإنسان؛ اختياري، أم قسري إجباري.

كون تغير المجتمعات وتحولها خاضع للحتمية السننية، لا يعني إلغاء لإرادة الإنسان؛ لأن السنة التاريخية تجري من تحت يده الإنسان، قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾(الجن16)، يقول محمد باقر الصدر في تأويل هذه الآية، والآية التي تقدمت قبل: «انظروا كيف أن السنن التاريخية لا تجري من فوق رأس الإنسان؛ بل تجري من تحت يده...

(20) خليفة خليفة، جامعة الجزائر، السنن الاجتماعية في تفسير المنار(مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في العلوم الإسلامية)، كلية العلوم الإسلامية، السنة الجامعية) م2015-2014م1435-هـ1436-هـ)، 28.

(21) فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، 21/381.

(22) عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، 1/343.

(23) أول من استخدم المنهج التجريبي هم العرب، يقول الدكتور غوستاف لوبون بأن العرب «أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب، وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة، جدّ علماء القرون الوسطى في أوربة ألف سنة قبل أن يعلموها. ويعزى إلى بيكين.. لكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم..»(غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة: عادل زُعَيتر، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، ص435).

إذن؛ هناك مواقف للإنسان تمثل حريته واختياره، وتصميمه، وهذه المواقف تستتبع ضمن علاقات السنن التاريخية، جزاءاتها ومعلولاتها المناسبة، فاختيار الإنسان له موضعه الرئيسي في الساحة التاريخية، والنظرية القرآنية لا تفصل الإنسان عن دوره الإيجابي، ولا تعطل فيه إرادته وحريته واختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية»[24].

مقتضى كلام باقر الصدر، أن السنة تجري من تحت يد الإنسان، وأن فعله يصير سنة بمجرد فعله، فهو مسؤول وحر وله إرادة، وهي عوامل مفضية لتحقق السنة؛ لكن الذي ينبغي أن يوضح -هنا- أكثر؛ حتى لا يساء فهم هذه المعادلة:(فعل الإنسان الحر والمسؤول في التاريخ=سنة تاريخية)، هو أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا أن الإنسان الحر المسؤول في التاريخ، يُجبِر السنة على الوقوع أو التخلف، وإنما المقصود أن الإنسان إذا صدر منه فعل، كالظلم -مثلًا- تحققت سنة الله، وهي إهلاك الظالمين، قال تعالى ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج:45].

وفي سياق ثبات السنن واطرادها، يقول عماد الدين خليل موضحًا: «إن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ السنن، سوف يؤول إلى تمييع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائيًا، وبالتالي سيؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل...ومن أجل أن نطمئن، يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن، ونفاذها، وعدم تبدلها أو تحولها، إنها موجودة أساسًا في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم...»[25].

ولبيان هل تحول المجتمعات وتغيرها هو دليل على تطورها وتقدمها، يقول مالك بن نبي: «إن تطور الجماعة يؤدي بها إما إلى شكلٍ راقٍ من أشكال الحياة الاجتماعية، وإما يسوقها على عكس ذلك، إلى وضع متخلف...تكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع عندما تشرع في الحركة؛ أي: تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غايتها. وهذا يتفق من الوجهة التاريخية مع لحظة انبثاق حضارة معينة...»[26].

فالأطروحة التي يحاول تأكيدها مالك بن نبي -هنا-، أن التغيُّر والتغيير من صفات أي مجتمع حي، كما أن الحياة لا تعني أنه مجتمع يتسم بالتقدم؛ بل حياة لا غاية لها، ويضيف قائلًا: «أما الجماعات

(24) السيد محمد باقر الصدر، السنن التاريخية في القرآن، دار إحياء التراث العربي –بيروت، ط1، (2011م/1432هـ)، ص75.
(25) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981م، ص109.
(26) مالك بن نبي(ت1973م)، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، ط3، (1406هـ/ 1986م)، ص18.

الساكنة، فإن لها حياة اجتماعية دون غاية»[27]، كما أن التطور لا يعني دائمًا الازدهار الحضاري، والتمكين النهضوي؛ بل قد يكون سياقًا يسوقها إلى التخلف، والسقوط، وهذا التفريق مهم جدًّا في هذا الصدد؛ حتى تُعلم العلة الغائية للسنن الاجتماعية، فإن لله قانونًا يحرك هذه المجتمعات؛ راسمًا لها معالم النهوض، وشرائط التمكين، فهو الثابت المطرد، وهي المتغيرة المتحولة.

وفي السياق نفسه، يقول عماد الدين خليل: «إن حركة أي جماعة بشرية في التاريخ، ليست اعتباطية، وإنها بما قد ركب فيها من قوى العقل والروح والإرادة... مسؤولة مسؤولية كاملة، خلال حركتها تلك؛ حيث ينتفي العبث واللاجدوى... وحيثما انتفت العلاقة الإيجابية، بين الإنسان والله والعالم، وسيء استخدام الحرية، وضاعت المسؤولية، وانعدم التخطيط المدرك الواعي، وتميعت القيم الأخلاقية... حيثما جاء الجزاء الموازي لجنس العمل، وآل بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار»[28].

فعند الوعي بأن أيّ حركة، لأيّ مجتمع في الوجود، إلاّ وهي تسير وفق سنن الله تعالى، يُتحصّل الفقه السنني، ويُنتقل من تقبلٍ للسنن، إلى تسخيرٍ لها، فالواقع لا يمكن التحكم فيه، إلا بفهم هندسة هذا الكون وتَشَكُّلاته، وإدراك قوانين عمل مكوناته؛ من الذرة إلى المجرة، وإدراك سيرورة المجتمعات وصيرورتها.

أمر آخر، وهو أنه إذا كانت للإنسان تلك الحرية؛ التي منحها الله له، فهو مطالب بإحداث التغيير؛ لأن «التغيّر هو القانون، وليس الثبات؛ لأنه ليس قضية عرضية طارئة؛ بل هو صفة الحياة»[29]. ومطالب بدفع قدر الله بقدر الله؛ لأن سنة التدافع شرط في ثبات بنية المجتمع وتقدمه، فإدراكها ووعيها، يُمكّن من القدرة على تسخيرها، يقول عمر عبيد حسنة: «الذي يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه وميادينه، وأسلحته، ومساراته، يصبح قادرًا على حسن تسخيره، والفقه بنتائجه...»[30].

ذلك؛ ومن حديث القرآن عن هذا القانون، قوله تعالى:

- ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً﴾(الأحزاب:62).
- ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاًۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً﴾(فاطر:43).

(27) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ص18.

(28) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص110-109.

(29) محسن عبد الحميد، منهج التغيير الاجتماعي في الإسلام، شركة الرشد للطباعة والنشر المحدودة،) السلسلة البيضاء المجموعة الثانية (، ص7.

(30) عمر عبيد حسنة، من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي، المكتب الاسلامي، ط:1، (1415هـ/1995م)، ص90.

• ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾(الفتح:23).

من خلال هذه الآيات وغيرها، يتبين أن القرآن يحوّل السنة «إلى دافع حركي دينامي يفرض على الجماعة المدركة الملتزمة، أن تتجاوز مواقع الخطأ؛ التي قادت الجماعة البشرية السابقة إلى الدّمار، وأن تحسن التعامل مع قوى الكون والطبيعة...»[31].

لم يكتف القرآن الكريم في بيان السنن الاجتماعية والتدليل عليها، وتكشيفها فقط؛ بل سَرَدَ نماذجَ مجتمعية وحالها مع السنن الإلهية، وكيف أهلك الله أعداءه، ونصر أولياءه، ولعل المساحة الكبيرة الواسعة؛ التي أخذها القصص القرآني، كفيلة لتبرير التأكيد القرآني على السنن الإلهية، وأنها ما أخذت تلك المساحة؛ إلا لأمرٍ عظيمٍ. والعلم بالسنن الاجتماعية، والفقه بالآيات الكونية، والوعي بالسياقات القرآنية أثناء عرضها-بوصفها القضية الشرطية لصناعة حضارة أو سقوطها- أمرٌ ضروريٌّ لتوظيفها، ولكي يتحقق الاستخلاف المنوط بها.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة؛ التي تناولت «فلسفة السنن الإلهية وتقدم المجتمعات من خلال الوحيين (الكتاب والسنة): دراسة تحليلية في التصور والمنهج»، اتضح لنا أن تصور معالم المجتمع النموذج في القرآن الكريم، أولى الخطوات العلمية نحو المجتمع المثال، والنظر في التاريخ وفي السنة النبوية، أمرٌ ضروريٌّ لانتقاء المنهج الأنجع في عملية البناء. ومن النتائج والتوصيات التي يمكن أن تسجل في هذا المختتم:

أولًا: من أهم النتائج التي خلُص إليها البحث ما يلي:

- المجتمع القرآني الذي مثّله النبي ﷺ في المدينة، هو المجتمع المثال، وحالة السواء للمجتمع الإنساني عامة.
- ترسيخ العقيدة في النفوس واستتبابها في المجتمع، هي الأسُّ الذي يقوم عليه المجتمع ويقام به؛ لأن الأصل العقدي تترجح كفته على سائر العلاقات، وهو الشّرط الأساس في البناء وتحقيق التقدم.
- لتتحقق الوحدة والتماسك في المجتمع، وتُعلم تركيبته السننية، وتُنقض حواجزه الطبقية.. لا بُدَّ من تحقيق مبدأ الإيمان؛ لما له من قدرة على تحقيق الائتلاف وتوحيد الرؤية والأهداف، ولا بُدَّ من

(31) عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ص111.

- تمثُّل مبدأ الإنسانية؛ لأنه سياق عام موجبٌ لائتلاف الناس ومُسالمة بعضهم بعضًا.
- خطابات الكراهية والعمليات الإجرامية المهددة لأمن المجتمع وتماسكه، يُحارب، ويُعاقب أصحابها أيًّا كانت دياناتهم ومرجعياتهم.
- أيّ مجتمع حاول خَرَق سنة من السنن الإلهية، فهو متخلف، وفي طريقه إلى الأفول والزوال؛ لأن هذا هو قانون الله.
- الاختلاف سنة في الخلق، والقصد منه، التكامل والتعاون، لا التعالي والتقاتل
- لا تقوم الضروريات ولا تتحصل غاياتها، إلا في ظل الأمن، وإذا لم يؤمن ضروري من الضروريات،
- وقع التصدع في المنظومة كلها؛ إذ الأمن هو البيئة السليمة لقيام الضروريات، وغاياتها.
- تغير الدول والمجتمعات، سنة وقانون إلهي في الكون.
- السنة تجري من تحت يد الإنسان، وفعله يصير سنة بمجرد أن يفعله، فهو مسؤول وحر وله إرادة، وهذه الثلاثة؛ عوامل مفضية لتحقق سنة الله.
- سنة التدافع شرطٌ في ثبات بنية المجتمع وتقدمه، فإدراكها ووعيها، يُمكّن من القدرة على تسخيرها تسخيرًا حسنًا.

ثانيًا: التوصيات:

- ينبغي عند قراءتنا للنّص القرآني وتفسيره، النظر إليه باعتباره نسقًا كليًا، لا آيات مجتزأة من
- بعضها بعضًا؛ لأن آليات البناء المجتمعي التي تحدثتُ عنها، تُستنبَطُ من خلال نظرة شمولية وتركيبية للنّسق المعرفي؛ المبثوث في عموم القرآن.
- تنظيم مؤتمرات وندوات في موضوع علم السنن الإلهية، وبيان خطورة إهماله، وضرورة مباحثاته.
- نداءٌ للهيئات العلمية وللمختصين، ودعوتهم للاهتمام بالسنن الإلهية تأصيلًا وتطبيقًا.
- تشجيع الطلبة الباحثين النابهين، في مختلف الجامعات الإسلامية، للاعتناء بهذا المجال، فهو «براديغم» جدير بالدراسة؛ لِما له من آفاق بحثية ذات جدوى وراهنية

قائمة المصادر والمراجع:

- الشاطبي، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور حسن سلمان، دار ابن عفان، ط1، 1997م.

- البغدادي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري، الشهير بالماوردي، **أدب الدنيا والدين**، دار مكتبة الحياة، 1986م.

- أبو الحسين مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث- بيروت.

- الشيباني، أحمد بن حنبل، **مسند الإمام أحمد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ - 2001م.

- أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، **مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ - 1979م.

- عمر، أحمد مختار عبد الحميد، بمساعدة فريق عمل، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب – القاهرة، ط1، 1429هـ 2008-م.

- النورسي، بديع الزمان سعيد، **المكتوبات**، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار: شركة سوزلر للنشر.

- خليفة، خليفة، **السنن الاجتماعية في تفسير المنار (مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية**، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2015-2014م.

- قطب، سيد، **نحو مجتمع إسلامي**، دار الشروق، ط10، 1413هـ- 1993م.

- الصدر، السيد محمد باقر، **السنن التاريخية في القرآن**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2011م.

- ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة بن خلدون، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، ط2، 1988م.

- خليل، عماد الدين، **التفسير الإسلامي للتاريخ**، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1981م.

- حسنة، عمر عبيد، الشاكلة الثقافية؛ مساهمة في إعادة البناء، المكتب الإسلامي، ط1، 1432هـ- 2011م.

- حسنة، عمر عبيد، من فقه التغيير ملامح من المنهج النبوي، المكتب الاسلامي، ط1، 1415هـ1995-م.

- لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زُعَيتر، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه.

- الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ.

- شكري، فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول: نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، دار الكتاب العربي بمصر، 1371هـ- 1952م.

- بن نبي، مالك، ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ط3، 1406هـ- 1986م.

Arabic References:

- al-Shāṭibī, Abū Isḥāq, Al-Muwāfaqāt fī uṣūl al-sharīʿah, Ed: Mashhūr Ḥasan Salmān, Dār Ibn ʿAffān, st1, 1997.

- Al-Baghdādī, Abū al-Ḥasan ʿAlī ibn Muḥammad ibn Muḥammad ibn Ḥabīb al-Baṣrī, al-shahīr bālmāwrdy, Adab al-Dunyā wa-al-dīn, Dār Maktabat al-ḥayāh, 1986.

- Abū al-Ḥusayn Muslim ibn al-Ḥajjāj, Ṣaḥīḥ Muslim, Ed: Muḥammad Fu'ād ʿAbd al-Bāqī, Dār Iḥyā' altrāth-byrwt.

- Al-Shaybānī, Aḥmad ibn Ḥanbal, Musnad al-Imām Aḥmad, Ed: Shuʿayb al-Arnā'ūṭ-ʿĀdil Murshid, wa-ākharūn, Mu'assasat al-Risālah, st1, 2001.

- Aḥmad ibn Fāris ibn Zakarīyā al-Qazwīnī al-Rāzī, Abū al-Ḥusayn, Maqāyīs al-lughah, Ed: ʿAbd al-Salām Muḥammad Hārūn, Dār al-Fikr, 1979.

- ʿUmar, Aḥmad Mukhtār ʿAbd al-Ḥamīd, bi-musāʿadat farīq ʿamal, Muʿjam al-lughah al-ʿArabīyah al-muʿāṣirah, ʿĀlam al-Kutub – al-Qāhirah, st1, 2008.

- Al-Nūrsī, Badīʿ al-Zamān Saʿīd, Almktwbāt, tr: Iḥsān Qāsim al-Ṣāliḥī, Dār: Sharikat Sūzlar lil-Nashr.

- Khalīfah, Khalīfah, Al-sunan al-ijtimāʿīyah fī tafsīr al-Manār (Mudhakkirah muqaddimah li-nayl shahādat al-mājistīr fī al-ʿUlūm al-Islāmīyah, Kullīyat al-ʿUlūm al-Islāmīyah, Jāmiʿat al-Jazā'ir, al-Sunnah al-Jāmiʿīyah 2014-2015m.

- Quṭb, Sayyid, Naḥwa mujtamaʿ Islāmī, Dār al-Shurūq, st10, 1993.

- Al-Ṣadr, al-Sayyid Muḥammad Bāqir, Al-sunan al-tārīkhīyah fī al-Qur'ān, Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī, Bayrūt, st1, 2011.

- Ibn Khaldūn, ʿAbd al-Raḥmān, Muqaddimah ibn Khaldūn, Ed: Khalīl Shiḥādah, Dār

al-Fikr, st2, 1988.

- Khalīl, ʿImād al-Dīn, Al-tafsīr al-Islāmī lil-tārīkh, Dār al-ʿIlm lil-Malāyīn, Bayrūt, st3, 1981.

- Ḥasanah, ʿUmar ʿUbayd, Alshāklh al-Thaqāfīyah; musāhamah fī iʿādat al-binā', al-Maktab al-Islāmī, st1, 2011.

- Ḥasanah, ʿUmar ʿUbayd, min fiqh al-taghyīr Malāmiḥ min al-manhaj al-Nabawī, al-Maktab al-Islāmī, st1, 1995.

- Le Bon, Gustave, Ḥaḍārat al-ʿArab, tr: ʿĀdil zuʿaytr, Maṭbaʿat ʿĪsá al-Ḥalabī wa-Shurakāh.

- Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn, Mafātīḥ al-ghayb, Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī, Bayrūt, st3,

- Shukrī, Fayṣal, al-mujtamaʿāt al-Islāmīyah fī al-qarn al-Awwal: nash'atuhā, muqawwimātuhā, taṭawwuruhā al-lughawī wa-al-adabī, Dār al-Kitāb al-ʿArabī bi-Miṣr, 1952.

- Ibn Nabī, Mālik, Mīlād mujtamaʿ: Shabakah al-ʿAlāqāt al-ijtimāʿīyah, tarjamat ʿAbd al-Ṣabūr Shāhīn, Dār al-Fikr, Dimashq, st3, -1986.